السنة النبوية و قضايا البيئة

أ. د. محمد زرمان

كلية الآداب واللغات

جامعة باتنة

الجزائر

az1959ma@maktoob.com

مقدمة

حظيت البيئة في الإسلام باهتمام بالغ، وأفردت لها نصوص السنة حيزاً فسيحاً أبانت فيه عن مكانتها، وحثت الإنسان المسلم على المحافظة عليها والانتفاع بها والتمتع بطيباتها في حدود الحاجة، كما حذرته من الفساد والإفساد فيها، ونبهته إلى العلاقة الحميمة التي تربطه بها بوصفه جزء لا يتجزأ من هذا الكون البديع الذي خلقه الله مقدراً موزوناً، وأكد له أنه يؤثر فيه بالقدر نفسه الذي يتأثر به.

والمتأمل في الأحاديث النبوية الشريفة التي وردت في هذا الموضوع يجدها قد غطت بتوجيهاتها معظم القضايا التي يثيرها علم البيئة المعاصر، وتعالجها الدراسات البيئية التي تهتم بظاهرة التلوث البيئي، وتسعى للحد من آثاره المدمرة على الإنسان والأرض، وهي بذلك تضمن سلامة البيئة على مستويين: مستوى إصلاحها وتنميتها والوصول بها إلى كمالها، ومستوى حمايتها من كل ما يتهددها من أخطار الاستنزاف والإفساد، مع ربط هذه التوجيهات ربطاً وثيقاً بالجانب العقدي، كونها واجبات دينية يثاب عليها المسلم إن هو قام بها، ويعاقب على التفريط فيها إهمالاً منه أو تقصيراً، لما يترتب على نكوصه عن أداء واجبه الاستخلافي من خلل وفساد.

وانطلاقا من المفهوم المتميز للبيئة في الإسلام، والذي لا ينحصر في الموارد المادية وإنما يرتبط ارتباطاً وثيقاً بصلاح العقائد، إذ كلما كانت عقيدة الإنسان صالحة كانت نشاطاته العمرانية وممارساته البيئية صالحة كذلك، واستناداً أيضاً إلى العلاقة الحميمة التي أقامها الإسلام بين الإنسان وسائر عناصر البيئة، والتي تلزمه مراعاة حقوق المخلوقات الأخرى لأن الإسلام أكد أنها تشاركه الحياة على الأرض كما تشاركه في العبودية لله والتسبيح له، فإننا نرى أن مجموعة الأحاديث النبوية التي تدعو إلى طهارة البدن، وطهارة الثوب، ونظافة الأطعمة وغرف المنزل وأفنيته، وأماكن العبادة والشوارع والأحياء، ودعوة الإنسان إلى تجنب الإسراف والتبذير وتحريمه في بعض الحالات، والحث على الاقتصاد ما أمكن في الاستهلاك، بحيث تشمل هذه القاعدة جميع مرافق الحياة، ويأتي على رأسها الموارد البيئية الأساسية: كالاقتصاد في المياه، والاقتصاد في الغذاء، والاقتصاد في الصيد بحيث لا يتجاوز حاجة الإنسان والمحافظة على الثروة الحيوانية، والنهي عن قطع الأشجار وإتلاف الثروة النباتية دون وجه حق، والنهي عن الإسراف في زراعة ما ليس فيه فائدة، كلها تدل دلالة قاطعة على المكانة المتميزة التي تحتلها البيئة في السنة النبوية الشريفة.

وتطمح هذه الورقة إلى بيان مفهوم البيئة في السنة النبوية الشريفة وتميزه عن المفهوم المادي المعاصر وارتباطه الوثيق بالجانب العقدي، والانتقال إلى الحديث عن المكانة الخاصة التي تحتلها البيئة في السنة، ثم تخصيص جانب هام للحديث عن رعاية البيئة والمحافظة عليها في السنة النبوية من خلال إيراد الآثار النبوية التي تحث على المحافظة على الموارد المائية والموارد الحيوانية بجميع أنواعها البرية والداجنة والثروة النباتية، والإرشادات النبوية التي تتناول الصحة والعمران وسبل المحافظة عليهما مع التركيز على الأهمية الكبرى للقاعدة العظيمة التي سنها الرسول صلى الله عليه وسلم لحماية موارد البيئة من الهدر والاستنزاف وهي ترشيد الاستهلاك والنهي عن الإسراف والتبذير، ثم استعراض موقف السنة من التلوث البيئي.

إن قضية البيئة في عصرنا الحاضر تستمد أهميتها من تفاقم ظاهرة التلوث التي لفتت الأنظار لقيمة البيئة ووضعتها على رأس قائمة الاهتمامات العالمية والتلوث بمفهومه المعاصر اعتداء صارخ على حق الحياة الذي يعد حفظه في الإسلام مقصداً هاماً من مقاصد الشريعة، لذلك كانت مقاربتنا لموضوع البيئة مرتبطة في كل مراحلها بالتلوث بوصفه سلوكاً إنسانياً عدوانياً لم يسترشد بمعالم المنهج الرباني الذي يضبط حركة الإنسان العمرانية أثناء قيامه بوظيفة الاستخلاف التي أنيطت به، والذي يلزمه مراعاة حقوق المخلوقات الأخرى التي أكد القرآن الكريم أنها تشاركه الحياة على الأرض كما تشاركه في العبودية لله والتسبيح له.

أولاً: مفهوم البيئة في السنة النبوية

البيئة في الاصطلاح الحديث تعني المجال الحيوي الذي يمارس فيه الإنسان حياته بما فيه من عناصر مادية يستنبط منها متطلبات عيشه وعوامل يتأثر بها نشاطه الفسيولوجي والاجتماعي، وقد عرف الباحثون المعاصرون البيئة بأنها: "المحيط الذي تعيش فيه الأحياء، مؤلفاً من الأرض، وغلافها الجوي، وما عليها، وما في باطنها.

أما مفهوم البيئة في السنة النبوية الشريفة فهو مكمل للمفهوم الذي أرساه القرآن الكريم، والذي يتجاوز حدود الموارد المادية، ليشمل طبيعة العلاقة التي تربط الإنسان بهذه البيئة، ونوعية هذه العلاقة، فإذا كان المفهوم الحديث يعد أن البيئة هي الموارد المادية التي تتفاعل فتمد الإنسان بأسباب الحياة، وتوفر له ما يحتاجه من مأكل وملبس ومأوى، فإن السنة الشريفة تعطي الأولوية في قيام الحياة الإنسانية الكاملة لصلاح العقائد، وانتشار الفضائل، والتزام الإنسان بالهدي الرباني، وتولي هذا الأمر أهمية خاصة، بناء على تميز الإنسان عن باقي عناصر الطبيعة، على الرغم من كونه أحد مواردها من خلال قدراته النفسية والروحية التي تجعله قادرا على التأثير في محيطه تأثيراً قد يكون سلبياً وقد يكون إيجابياً تبعاً لما ينطوي عليه تركيبه الفكري من قيم ومبادئ: "فالناس يعيشون في بيئات أنفسهم أولاً: مبادئ ومثلاً وقيماً، أو يكونون خلوا منها لينعكس أثر ذلك كله على بيئاتهم المادية ومواردها: سعياً ومواقف وأهدافاً"[1].

وهذا هو السر في عناية السنة الشريفة بتعمير النفس قبل توجيهها إلى النشاط العمراني المادي الذي لا يمثل سوى انعكاساً مباشراً لأثر تلك القيم والمثل في سعي الإنسان ومواقفه وأهدافه، وحتى نتبين أبعاد هذا المفهوم، يجدر بنا أن نتعرف إلى المكانة التي تحتلها البيئة في السنة النبوية، ونتلمس مدى اهتمامها بإقامة جسور التواصل والتوافق بينها وبين الإنسان لضمان حمايتها والمحافظة عليها.

ثانياً: مكانة البيئة في السنة النبوية

تحتل البيئة في السنة النبوية موقعاً متميزاً يتجلى في حرص النبي صلى الله عليه وسلم على جعل حمايتها والمحافظة عليها جزءاً لا يتجزأ من واجبات المسلم التي يثاب عليها إن قام بها، ويعاقَب على التفريط فيها إهمالاً منه أو تقصيراً لما يترتب على نكوصه عن أداء واجبه من خلل وفساد، وقد شمل هذا التوجيه مظاهر البيئة جميعها، ومجالاتها كافة، بدءاً من إماطة الأذى عن الطريق وانتهاءً بتحريم قتل النفس التي حرم الله.

[1] مجلة دراسات: "حماية البيئة في الإسلام"، د. إبراهيم زيد الكيلاني. ص٢٠٢.

وتتجلى مكانة البيئة في السنة المطهرة من خلال الإرشادات التي كان يتعهد بها رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه فيعمق في نفوسهم الميل إلى التأمل في ملكوت السموات والأرض، واستشعار نعمة الله في كل ما يحيط بهم من حياة وجماد، وينمي لديهم الشعور بالألفة والقرب من البيئة بجميع مظاهرها، فالأرض التي يمشون عليها ويأكلون من غلاتها هي أمهم التي تحتضنهم وترعاهم، ومن حقها عليهم أن يكنوا لها مشاعر التقدير والاحترام، فيستحيوا منها كما يستحون من أمهاتهم اللاتي ولدنهم، ولا يرتكبون على ظهرها معصية، ولا يشوهون جمالها، ولا يبددون ثرواتها، ولا يفسدون مواردها لتبقى العلاقة الرحيمة قائمة بين الطرفين، ولتشهد لهم شهادة خير يوم القيامة، يوم تُحَدِّثُ أخبارها. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(تحفظوا من الأرض فإنها أمكم، وإنه ليس من أحد عامل عليها خيراً أو شراً إلا وهي مخبرة به)**[1].

ويوثق رسول الله صلى الله عليه وسلم الصلة التي تربط الناس بالأرض، فيخبرنا أن المؤمن إذا مات يبكي عليه الباب الذي كان يصعد منه عمله و يتألم لفراقه لأنه يفقد بذلك الرفيق الذي كان يستأنس بأذكاره ويستمتع بمناجاته لربه ويشاطره تسبيح الله وتقديسه،كما يبكي عليه الباب الذي كان يهبط منه رزقه فينفقه في وجوه الخير ويبذله في إصلاح الأرض وإعمارها، قال عليه الصلاة والسلام: **(مَا مِنْ مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَهُ بَابَانِ بَابٌ يَصْعَدُ مِنْهُ عَمَلُهُ وَبَابٌ يَنْزِلُ مِنْهُ رِزْقُهُ فَإِذَا مَاتَ بَكَيَا عَلَيْهِ فَذَلِكَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: {**فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ} (سورة الدخان: ٢٨)[2].

وإذا كانت علاقة الأرض بالعبد الصالح طيبة مباركة، فإن علاقتها بالعبد الفاجر متوترة ومضطربة، وهي تضيق ذرعا بفسقه وعصيانه وفساده وكأنها لا تحتمل وجوده فوق ظهرها، فإذا مات انتابها شعور عميق بالراحة، وشاطرتها هذا الشعور جميع الكائنات النباتية والحيوانية التي لم تر من هذا الإنسان المنحرف سوى الفساد، حدث أبو قتادة بن ربعي الأنصاري: **(أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُرَّ عَلَيْهِ بِجِنَازَةٍ فَقَالَ: مُسْتَرِيحٌ وَمُسْتَرَاحٌ مِنْهُ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا الْمُسْتَرِيحُ وَالْمُسْتَرَاحُ مِنْهُ؟ قَالَ :الْعَبْدُ الْمُؤْمِنُ يَسْتَرِيحُ مِنْ نَصَبِ الدُّنْيَا وَأَذَاهَا إِلَى رَحْمَةِ اللَّهِ، وَالْعَبْدُ الْفَاجِرُ يَسْتَرِيحُ مِنْهُ الْعِبَادُ وَالْبِلَادُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ)**[3].

ويخبر النبي صلى الله عليه و سلم أنه كان قبل البعثة يحس بصلة قرابة قوية تربطه بهذه البيئة الصخرية التي نراها نحن جامدة لا روح فيها فيقول: **(إِنِّي لَأَعْرِفُ حَجَرًا بِمَكَّةَ كَانَ يُسَلِّمُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُبْعَثَ إِنِّي لَأَعْرِفُهُ الْآنَ)**[4]، وكأن الحجر كان عاملا من عوامل تهيئة النبي صلى الله عليه وسلم لتحمل الأمانة الكبرى، وتصفية نفسه والارتقاء بها من خلال الالتحام بينها وبين عناصر البيئة المختلفة، وشهد الصحابة رضوان الله عليهم فصلاً رائعاً من

---

[1] أخرجه الطبراني في معجمه الكبير: رقم الحديث: ٤٥٩٦، ورواه الهيثمي في مجمع الزوائد وقال: فيه ابن لهيعة وهو ضعيف، ج ١ ص٢٤١، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع، رقم: ٢٤٠٧.

[2] أخرجه الترمذي في سننه:كتاب تفسير القرآن عن رسول الله، باب سورة الدخان، رقم الحديث: ٣١٧٨، قال الترمذي حديث غريب لا نعرفه مرفوعاً إلا من هذا الوجه، وضعفه الألباني في ضعيف الترمذي،رقم الحديث: ٣٢٥٥.

[3] أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الرقاق، باب سكرات الموت، رقم الحديث: ٦٠٣١.

[4] أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب الفضائل، باب فضل نسب النبي و تسليم الحجر عليه قبل النبوة، رقم الحديث: ٤٢٢٢.

هذا القبيل حينما بنوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم منبراً ليخطب عليه بدل الجذع الذي كان يتكئ إليه، فإذا بالجذع يئن على مرأى ومسمع من الجميع أنين الموجوع، ويعبر عن ألمه لفراق رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلا يهدأ أنينه حتى يحتضنه رسول الله ويمسح عليه، فعن عبد الله بن جابر قال: (**كَانَ الْمَسْجِدُ مَسْقُوفًا عَلَى جُذُوعٍ مِنْ نَخْلٍ فَكَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا خَطَبَ يَقُومُ إِلَى جِذْعٍ مِنْهَا فَلَمَّا صُنِعَ لَهُ الْمِنْبَرُ وَكَانَ عَلَيْهِ فَسَمِعْنَا لِذَلِكَ الْجِذْعِ صَوْتًا كَصَوْتِ الْعِشَارِ حَتَّى جَاءَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهَا فَسَكَنَتْ**)[1].

و الريح كائن جميل، ومخلوق مسخر لخير البشر، فهي تلطف الجو وتسوق السحاب، وتنقل حبوب الطلع فتمتلئ الأرض خضرة وزهوراً وثماراً، ولكنها تتحول بأمر ربها إلى جندي رباني يعصف بالكَفَرة والظَّلَمَة ويحمل الموت والدمار، وكل ذلك بتوجيه من خالقها، فلا يجدر بالمؤمن أن يسبها أو يلعنها وهي تؤدي في إخلاص المهام المنوطة بها، **فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال:** (**سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ الرِّيحُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ قَالَ سَلَمَةُ فَرَوْحُ اللَّهِ تَأْتِي بِالرَّحْمَةِ وَتَأْتِي بِالْعَذَابِ فَإِذَا رَأَيْتُمُوهَا فَلَا تَسُبُّوهَا وَسَلُوا اللَّهَ خَيْرَهَا وَاسْتَعِيذُوا بِاللَّهِ مِنْ شَرِّهَا**)[2]، وهذا توجيه نبوي راق، يفتح للمسلمين آفاقاً واسعة للتعامل الإيجابي مع البيئة، من خلال الإحساس العميق بعدم خضوعها للصدفة العمياء والعبثية، وارتباطها الوثيق بالإرادة الربانية الحكيمة التي تُسَيِّرُ الكون كله.

فالبيئة في السنة النبوية بجميع مظاهرها تنبض بالحياة وتمتلئ بالمشاعر الرقيقة، وهي جزء لا يتجزأ من وجود الإنسان، فعلى المسلم أن يتعامل معها من هذا المنطلق الذي يعدها بموجبه شريكته في الوجود، يتعاونان سوياً على الإصلاح والإعمار كلٌ من جانبه.

ثالثاً: المحافظة على الموارد المائية في السنة النبوية

الماء نعمة عظيمة من النعم التي من بها الله تعالى على الناس، حيث جعله مصدر الحياة وقوامها، وعلى وجوده يتوقف وجود الكائنات كلها {وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون} (سورة الأنبياء: ٣٠)، وقد أحاطت السنة النبوية هذا المصدر البيئي البالغ الأهمية بسياج عال من التوجيهات والإرشادات، ونبه عليه الصلاة والسلام في أكثر من مناسبة إلى ما يكتسيه من قيمة عظيمة لاستقامة حياة الإنسان، وصلاح الأرض وعمارتها، وبلغ تشدد النبي عليه الصلاة و السلام في المحافظة على الموارد المائية درجة أثارت استغراب الصحابة و تعجبهم، فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: (**أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَرَّ بِسَعْدٍ وَهُوَ يَتَوَضَّأُ فَقَالَ: مَا هَذَا السَّرَفُ؟ فَقَالَ: أَفِي الْوُضُوءِ إِسْرَافٌ؟ قَالَ: نَعَمْ، وَإِنْ كُنْتَ عَلَى نَهَرٍ جَارٍ**)[3]، قال الشوكاني: "والحديث

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، رقم الحديث: ٣٣٢٠.

[2] أخرجه أبو داوود في سننه: كتاب الأدب، باب ما يقول إذا هاجت الريح، رقم الحديث: ٤٤٣٣، وابن ماجه في سننه، كتاب الأدب، باب النهي عن سب الريح، رقم الحديث: ٣٧١٧، وصححه الألباني في صحيح الجامع وقال: إسناده متصل ورجاله ثقات، رقم الحديث: ٧٣١٦.

[3] أخرجه ابن ماجه في سننه: كتاب الطهارة وسننها، باب ما جاء في القصد في الوضوء وكراهة التعدي فيه، رقم: ٤١٩.

يدل على كراهة الإسراف في الماء للغسل والوضوء، واستحباب الاقتصاد، وقد أجمع العلماء على النهي عن الإسراف في الماء ولو كان على شاطئ النهر"[1].

وأعطى الرسول صلى الله عليه و سلم للمسلمين مثالاً عملياً على ذلك، و أمرهم أن يلتزموا فيه بالقدر المطلوب من المياه حتى لا يدخلوا دائرة الإساءة التي تجرهم إلى ظلم البيئة واستنزاف مواردها بالإسراف والتبذير، فعَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ: **(أَنَّ رَجُلًا أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ كَيْفَ الطُّهُورُ؟ فَدَعَا بِمَاءٍ فِي إِنَاءٍ فَغَسَلَ كَفَّيْهِ ثَلَاثًا، ثُمَّ غَسَلَ وَجْهَهُ ثَلَاثًا، ثُمَّ غَسَلَ ذِرَاعَيْهِ ثَلَاثًا، ثُمَّ مَسَحَ بِرَأْسِهِ فَأَدْخَلَ إِصْبَعَيْهِ السَّبَّاحَتَيْنِ فِي أُذُنَيْهِ وَمَسَحَ بِإِبْهَامَيْهِ عَلَى ظَاهِرِ أُذُنَيْهِ وَبِالسَّبَّاحَتَيْنِ بَاطِنَ أُذُنَيْهِ، ثُمَّ غَسَلَ رِجْلَيْهِ ثَلَاثًا ثَلَاثًا، ثُمَّ قَالَ: هَكَذَا الْوُضُوءُ. فَمَنْ زَادَ عَلَى هَذَا أَوْ نَقَصَ فَقَدْ أَسَاءَ وَظَلَمَ أَوْ ظَلَمَ وَأَسَاءَ)**[2].

وإذا كانت هذه الإرشادات النبوية الراقية المستوحاة من العلم الرباني الأزلي قد أثارت في وقتها بعض الاستغراب، ولا تزال لحد الآن عند بعضهم توضع في خانة المبالغات، فإن تتابع الأحداث وتوالي القرون قد وضعها في أعلى المقامات، ودل على أنها دستور عملي ناجع لكل ما يهدد البشرية في مستقبل أيامها جراء استهتارها بهذا المورد الحيوي، وتفننها في تبذيره، وهدره، والذي وضعها على أبواب أزمة مياه عالمية تهدد بما لا تحمد عقباه نتيجة السلوك الخاطئ الذي يتعامل به الناس مع المياه في جميع أنحاء العالم متأثرين في ذلك بالنظرة الغربية التي تقوم على المبالغة في الرفاهية، والتوسع في الاستمتاع بموارد البيئة إلى حد الإسراف المفرط لإرضاء رغبات الإنسان وإشباع شهواته دون ضابط.

أمام هذه المشاهد المأساوية ندرك عظمة التوجيهات النبوية في ذلك الوقت المبكر حينما كان الناس في سعة من أمرهم، ونعرف أن المحافظة على المياه حتى في أمور العبادة و عند التطهر للوقوف بين يدي الله هو أول الطريق نحو حماية هذا المورد البيئي الحيوي من الإهدار.

رابعاً: المحافظة على الموارد الحيوانية في السنة النبوية

الحيوانات بجميع أنواعها جزء صميم من البيئة، وحلقة أساسية في السلسلة الغذائية، ونعمة من أجل النعم التي من الله بها على عباده، ودعاهم للتفكر فيها لإدراك عظمته وجلاله، من خلال التأمل في أنواعها الكثيرة، وأحجامها وأشكالها وألوانها المختلفة التي تثير الدهشة والإعجاب.

وجاءت السنة النبوية الشريفة لترشد المسلمين إلى أقوم الطرق لحماية الثروة الحيوانية، تستوي في ذلك الحيوانات البرية والحيوانات الداجنة، وفصلت الأحاديث ما أجمله القرآن، ووسعت آفاق الآيات ودعت إلى وجوب احترام جميع الكائنات لأنها خلقت لحكمة تتضمن الخير، وليس فيها شائبة من شوائب العبث، تعالى الله عن ذلك

[1] نيل الأوطار: محمد بن علي الشوكاني، ج١ ص٢٥٠.

[2] أخرجه أبو داوود في سننه: كتاب الطهارة، باب الوضوء ثلاثاً ثلاثاً، رقم الحديث: ١١٦.

علواً كبيراً، فعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: **(إِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَهَى عَنْ قَتْلِ أَرْبَعٍ مِنْ الدَّوَابِّ النَّمْلَةُ وَالنَّحْلَةُ وَالْهُدْهُدُ وَالصُّرَدُ)**[1].

فهذه التوجيهات النبوية جاءت لتعيد الأمور إلى نصابها، ولتنبه البشر إلى أن وجود هذه المخلوقات مرتبط بحكمة عالية وموجود بإرادة ربانية لأداء وظيفة قد يجهلها الناس وقد يدركونها في مستقبل الأيام، والقاعدة التي يجب أن تحكم تصرفاتهم وسلوكهم تجاه جميع الحيوانات هو عدم الاعتداء على وجودها ظلماً وبغياً، ويكفيهم أن يعرفوا أنها داخلة في جملة الكائنات التي تسبح الله، فعن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: **(سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: قَرَصَتْ نَمْلَةٌ نَبِيًّا مِنْ الْأَنْبِيَاءِ فَأَمَرَ بِقَرْيَةِ النَّمْلِ فَأُحْرِقَتْ فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ أَنْ قَرَصَتْكَ نَمْلَةٌ أَحْرَقْتَ أُمَّةً مِنْ الْأُمَمِ تُسَبِّحُ)**[2].

ويدخل تحت هذا الباب أيضا نهيه عليه الصلاة و السلام عن قتل الضفدع: فعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عُثْمَانَ: **(أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَهَى عَنْ قَتْلِ الضِّفْدَعِ)**[3]، ونهيه عن إبادة الكلاب: **(لَوْلَا أَنَّ الْكِلَابَ أُمَّةٌ مِنْ الْأُمَمِ لَأَمَرْتُ بِقَتْلِهَا كُلِّهَا فَاقْتُلُوا مِنْهَا كُلَّ أَسْوَدَ بَهِيمٍ)**[4]، ونهيه عن صيد الحيوانات وقتلها للتسلية وإزجاء الوقت، وتوعد الذين يفعلون ذلك بالعقاب الشديد، فعَنْ عَمْرِو بْنِ الشَّرِيدِ قَالَ سَمِعْتُ الشَّرِيدَ يَقُولُ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: **{(مَنْ قَتَلَ عُصْفُورًا عَبَثًا عَجَّ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْهُ، يَقُولُ: يَا رَبِّ إِنَّ فُلَانًا قَتَلَنِي عَبَثًا وَلَمْ يَقْتُلْنِي لِمَنْفَعَةٍ}**[5]، وأرشد إلى الاقتصار على صيد ما يغطي احتياجات الإنسان فقط، وكل ما تجاوز هذا القدر يدخل في باب البغي والعدوان على البيئة بالإفساد، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: **(مَا مِنْ إِنْسَانٍ قَتَلَ عُصْفُورًا فَمَا فَوْقَهَا بِغَيْرِ حَقِّهَا إِلَّا سَأَلَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْهَا. قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا حَقُّهَا؟ قَالَ: يَذْبَحُهَا فَيَأْكُلُهَا وَلَا يَقْطَعُ رَأْسَهَا يَرْمِي بِهَا)**[6].

وعضد هذه التوجيهات الحضارية الراقية بالنهي الصارم عن تعذيب الحيوانات واتخاذها غرضا للرمي لأنها كائنات تحس بالألم مثل البشر لكنها لا تقوى على التعبير عن ذلك ولا تستطيع الدفاع عن نفسها، ولأن الله خلقها ليسخرها الإنسان لمنفعته بالركوب أو الذبح أو حمل الأثقال أو حراثة الأرض في حدود طاقتها، وليس

---

[1] أخرجه أبو داوود في سننه: كتاب الأدب، باب في قتل الذر، رقم الحديث: ٤٥٨٣، وصححه الألباني في كتاب الإرواء، رقم: ٢٢٨٩.

[2] أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الجهاد و السير، رقم الحديث: ٢٧٩٦.

[3] أخرجه الدارمي في سننه: كتاب الأضاحي، باب النهي عن قتل الضفدع و النحلة، رقم الحديث: ١٩١٤، وأبو داوود في سننه: كتاب الأدب، باب في قتل الضفدع، رقم الحديث: ٤٥٨٥، وصححه الألباني في صحيح أبي داوود، رقم: ٥٢٦٩.

[4] أخرجه الترمذي في سننه: كتاب الأحكام و الفوائد، باب ما جاء في قتل الكلاب، رقم الحديث: ١٤٠٦، قال الترمذي: حسن صحيح، وصححه الألباني في صحيح الترمذي، رقم: ١٤٨٦.

[5] أخرجه أحمد في مسنده: كتاب أول مسند الكوفيين، باب حديث الشريد بن سويد الثقفي، رقم الحديث: ١٨٦٥١، ورواه ابن حبان في صحيحه، رقم ٥٨٩٤، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع، رقم: ٥٧٥١.

[6] أخرجه النسائي في سننه، كتاب الضحايا، باب من قتل عصفوراً بغير حقها، رقم الحديث: ٤٣٦٩، والحاكم في المستدرك وقال: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي، ج ٤ ص٢٣٣، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب، رقم: ١٠٨٤.

لتعذيبها والتلهي بها، و لأن التوسع في هذا السلوك المشين يضر بالبيئة و يخل بتوازنها بفقدان كائنات كثيرة عبثا وفي غير فائدة، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قَالَ: **(مَرَّ ابْنُ عُمَرَ بِفِتْيَانٍ مِنْ قُرَيْشٍ قَدْ نَصَبُوا طَيْرًا وَهُمْ يَرْمُونَهُ وَقَدْ جَعَلُوا لِصَاحِبِ الطَّيْرِ كُلَّ خَاطِئَةٍ مِنْ نَبْلِهِمْ، فَلَمَّا رَأَوْا ابْنَ عُمَرَ تَفَرَّقُوا فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ: مَنْ فَعَلَ هَذَا؟ لَعَنَ اللَّهُ مَنْ فَعَلَ هَذَا، إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَعَنَ مَنْ اتَّخَذَ شَيْئًا فِيهِ الرُّوحُ غَرَضًا)**[1].

ويدخل في هذا الإطار تلك المباريات التي تقام للتحريش بين حيوانين حتى يقتل أحدهما الآخر أو يثخنه بالجراح، ومصارعة الثيران وغيرها من فنون التعذيب التي ابتكرها الناس للتلهي بالحيوانات، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: **(نَهَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ التَّحْرِيشِ بَيْنَ الْبَهَائِمِ)**[2]، وعَنْ هِشَامِ بْنِ زَيْدٍ قَالَ: **(دَخَلْتُ مَعَ أَنَسٍ عَلَى الْحَكَمِ بْنِ أَيُّوبَ فَرَأَى غِلْمَانًا أَوْ فِتْيَانًا نَصَبُوا دَجَاجَةً يَرْمُونَهَا فَقَالَ أَنَسٌ: نَهَى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ تُصْبَرَ الْبَهَائِمُ)**[3]، وعن إِسْحَاقُ بْنُ سَعِيدٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: **(دَخَلَ ابْنُ عُمَرَ عَلَى يَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ وَغُلَامٌ مِنْ بَنِيهِ رَابِطٌ دَجَاجَةً يَرْمِيهَا فَمَشَى إِلَى الدَّجَاجَةِ فَحَلَّهَا ثُمَّ أَقْبَلَ بِهَا وَبِالْغُلَامِ وَقَالَ لِيَحْيَى: ازْجُرُوا غُلَامَكُمْ هَذَا مِنْ أَنْ يَصْبِرَ هَذَا الطَّيْرَ عَلَى الْقَتْلِ فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَنْهَى أَنْ تُصْبَرَ بَهْمَةٌ أَوْ غَيْرُهَا لِقَتْلٍ وَإِنْ أَرَدْتُمْ ذَبْحَهَا فَاذْبَحُوهَا)**[4].

وأعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم للمسلمين درساً في الرفق بالحيوان ليلفت أبصارهم إلى الواقع الذي يعيشونه فيتحروا فيه هذه الفضيلة وهم يتعاملون يومياً مع مختلف الحيوانات التي تخدمهم، عندما تواصل مع جمل من إبل المدينة بكى بين يدي رسول الله وشكا إليه صاحبه الذي يجيعه ويحمله من مشاق العمل ما لا يطيق، وفي هذا المشهد المؤثر تنبيه عملي قوي لكل من رآه أو سمع به ليستصحب هذا التوجيه بشكل دائم وهو يمارس أعماله اليومية من خلال تسخير هذه الكائنات فلا يغيب عن باله دموع هذا الجمل وهو يشكو قسوة بني آدم عليه، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَعْفَرٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **(دَخَلَ حَائِطًا لِرَجُلٍ مِنْ الْأَنْصَارِ فَإِذَا جَمَلٌ، فَلَمَّا رَأَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَنَّ وَذَرَفَتْ عَيْنَاهُ، فَأَتَاهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَمَسَحَ ذِفْرَاهُ فَسَكَتَ، فَقَالَ: مَنْ رَبُّ هَذَا الْجَمَلِ؟ لِمَنْ هَذَا الْجَمَلُ؟ فَجَاءَ فَتًى مِنْ الْأَنْصَارِ فَقَالَ: لِي يَا رَسُولَ اللَّهِ. فَقَالَ :أَفَلَا تَتَّقِي اللَّهَ فِي هَذِهِ الْبَهِيمَةِ الَّتِي مَلَّكَكَ اللَّهُ إِيَّاهَا فَإِنَّهُ شَكَا إِلَيَّ أَنَّكَ تُجِيعُهُ وَتُدْئِبُهُ)**[5]، وعن شُرَحْبِيلُ بْنُ مُسْلِمٍ الْخَوْلَانِيُّ أَنَّ رَوْحَ بْنَ زِنْبَاعٍ زَارَ تَمِيمًا الدَّارِيَّ فَوَجَدَهُ يُنَقِّي شَعِيرًا لِفَرَسِهِ قَالَ وَحَوْلَهُ أَهْلُهُ فَقَالَ لَهُ رَوْحٌ: أَمَا كَانَ فِي

---

[1] أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب الصيد والذبائح وما يؤكل من الحيوان، رقم الحديث: ٣٦١٩.

[2] أخرجه أبو داوود في سننه: كتاب الجهاد، باب في التحريش بين البهائم، رقم الحديث: ٢١٩٩، والترمذي في سننه: كتاب الجهاد عن رسول الله، باب ما جاء في كراهية التحريش بين البهائم والضرب، رقم الحديث: ١٦٣١، وضعفه الألباني في سنن الترمذي، رقم: ٢٨٧.

[3] أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الذبائح و الصيد، باب ما يكره من المثلة والمصبورة والمجثمة، رقم الحديث: ٥٠٨٩.

[4] أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الذبائح والصيد، باب ما يكره من المثلة والمصبورة والمجثمة، رقم: ٥٠٩٠.

[5] أخرجه أبو داوود في سننه: كتاب الجهاد، باب ما يؤمر به من القيام على الدواب و البهائم، رقم الحديث: ٢١٨٦، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ج ١ ص٢٨.

هَؤُلَاءِ مَنْ يَكْفِيكَ؟ قَالَ تَمِيمٌ: بَلَى وَلَكِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: **(مَا مِنْ امْرِئٍ مُسْلِمٍ يُنَقِّي لِفَرَسِهِ شَعِيرًا ثُمَّ يُعَلِّقُهُ عَلَيْهِ إِلَّا كُتِبَ لَهُ بِكُلِّ حَبَّةٍ حَسَنَةٌ)**.

وأخبر عليه الصلاة والسلام أن رجلاً لقي كلباً يلهث من العطش فسقاه فغفر الله له لرحمته بهذا الكلب وإشفاقه عليه من أن يموت عطشاً، وعلَّم أصحابه أن كل ما يقدمونه للكائنات الحية كائنة من كانت ليخلصوها من أوجاعها ويخففوا من أتعابها سيأجرهم الله عليها خير الأجر وحسن الثواب، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: **(بَيْنَا رَجُلٌ يَمْشِي فَاشْتَدَّ عَلَيْهِ الْعَطَشُ فَنَزَلَ بِئْرًا فَشَرِبَ مِنْهَا ثُمَّ خَرَجَ فَإِذَا هُوَ بِكَلْبٍ يَلْهَثُ يَأْكُلُ الثَّرَى مِنْ الْعَطَشِ فَقَالَ: لَقَدْ بَلَغَ هَذَا مِثْلُ الَّذِي بَلَغَ بِي، فَمَلَأَ خُفَّهُ ثُمَّ أَمْسَكَهُ بِفِيهِ ثُمَّ رَقِيَ فَسَقَى الْكَلْبَ فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ فَغَفَرَ لَهُ. قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَإِنَّ لَنَا فِي الْبَهَائِمِ أَجْرًا ؟قَالَ: فِي كُلِّ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أَجْرٌ)**[1].

وفي مقابل هذا المشهد الذي نال فيه صاحبه الرحمة و المغفرة في كلب سقاه، صور لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم مشهداً مرعباً لامرأة دخلت النار لأنها حبست هرة في البيت حتى ماتت، فلا هي أطعمتها ولا هي تركتها تبتغي رزقها في مكان آخر، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: **(عُذِّبَتْ امْرَأَةٌ فِي هِرَّةٍ حَبَسَتْهَا حَتَّى مَاتَتْ جُوعًا فَدَخَلَتْ فِيهَا النَّارَ قَالَ: فَقَالَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ لَا أَنْتِ أَطْعَمْتِهَا وَلَا سَقَيْتِهَا حِينَ حَبَسْتِيهَا وَلَا أَنْتِ أَرْسَلْتِهَا فَأَكَلَتْ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ)**[2].

ومثله في ذلك نهيه عليه الصلاة والسلام عن ترويع الطيور بهدم أعشاشها أو خطف أفراخها دون وجه حق، إذ لا منفعة في فرخ صغير لا يزال بحاجة إلى أمه حتى ينمو ريشه ويقوى جسمه ويتعلم الطيران، أو تحريق قرى النمل في مكان لا تؤذي فيه الناس ولا تضايقهم بوجودها، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: **(كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي سَفَرٍ فَانْطَلَقَ لِحَاجَتِهِ فَرَأَيْنَا حُمَرَةً مَعَهَا فَرْخَانِ فَأَخَذْنَا فَرْخَيْهَا فَجَاءَتْ الْحُمَرَةُ فَجَعَلَتْ تَفْرِشُ، فَجَاءَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: مَنْ فَجَعَ هَذِهِ بِوَلَدِهَا؟ رُدُّوا وَلَدَهَا إِلَيْهَا .وَرَأَى قَرْيَةَ نَمْلٍ قَدْ حَرَّقْنَاهَا فَقَالَ :مَنْ حَرَّقَ هَذِهِ؟ قُلْنَا :نَحْنُ .قَالَ: إِنَّهُ لَا يَنْبَغِي أَنْ يُعَذِّبَ بِالنَّارِ إِلَّا رَبُّ النَّارِ)**[3].

وبلغت رحمة النبي عليه الصلاة والسلام بالحيوانات قمتها حينما أوصى أصحابه بالرفق بها أثناء الذبح وأثناء الصيد، ووجههم إلى سن شفرة الذبح حتى لا تتألم البهيمة المذبوحة ويطول أمد عذابها وهي تموت، وإلى المسارعة بذبح الحيوان المصطاد حتى لا يترك لفترة طويلة وهو ينزف من جرح الصياد، عَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ قَالَ: **(ثِنْتَانِ**

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب المساقاة، باب فضل سقي الماء، رقم الحديث: ٢١٩٠.

[2] أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب المساقاة، باب فضل سقي الماء، رقم الحديث: ٢١٩٢.

[3] أخرجه أبو داوود في سننه: كتاب الجهاد، باب في كراهية حرق العدو بالنار، رقم الحديث: ٢٣٠٠، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة: ج١ ص٣٣.

حَفِظْتُهُمَا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذِّبْحَ وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ فَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ)[1].

وسن للمسلمين قاعدة مهمة في الاقتصاد فنهاهم عن ذبح الشاة الحلوب لأنها مصدر حيوي من مصادر الغذاء، يسد به الناس حاجتهم إلى مادة أساسية من مواد الاستهلاك اليومية، حيث يروي أبو هريرة أن الرسول صلى الله عليه وسلم: **نهى الأنصاري الذي استضافه أن يذبح الحلوب**[2].

فهذه الأحاديث الشريفة التي غطت بتوجيهاتها شرائح واسعة من البيئة الحيوانية، تدعو في مجملها إلى الحفاظ على الموارد الحيوانية وحمايتها من الإبادة والانقراض، والانتفاع بها في حدود الحاجة، والرفق بها في المعاملة: عَنْ سَهْلِ ابْنِ الْحَنْظَلِيَّةِ قَالَ: **(مَرَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِبَعِيرٍ قَدْ لَحِقَ ظَهْرُهُ بِبَطْنِهِ فَقَالَ: اتَّقُوا اللَّهَ فِي هَذِهِ الْبَهَائِمِ الْمُعْجَمَةِ فَارْكَبُوهَا صَالِحَةً وَكُلُوهَا صَالِحَةً)**[3]، وعدم الاحتكام إلى العقل البشري القاصر الذي لا يدرك جميع أبعاد الكون وأسراره، فيستغل قدراته التكنولوجية ليحكم بالإعدام على كل من يظن أنه يعيق نشاطه الصناعي، أو يهدد محصوله الزراعي، و يطلق العنان لنزواته في الصيد فيقضي على مئات الكائنات للتسلية واللهو والترفيه، أو يقضي على أعداد كبيرة منها ويترك جثثها في العراء ليستفيد من عاجها أو فروها أو جلدها أو بيضها أو زيتها ليزين بها سهراته الفارهة وحفلاته الأرستقراطية، و هو لا يدرك أنه بهذا العمل الأهوج يحطم حلقات السلسلة البيئية المترابطة ويفتح على نفسه أبواباً من العذاب الذي بدأت البشرية تذوق بعض شروره.

خامساً: المحافظة على الموارد النباتية في السنة النبوية

النبات مظهر قوي ومتميز من مظاهر البيئة، وهي كائنات ذاتية التغذية، تبني غذاءها من مواد غير عضوية بسيطة بتثبيت الطاقة أثناء عملية البناء الضوئي، مما يجعلها في أول سلم السلسلة الغذائية كونها الصانع الرئيس للغذاء والدواء على الأرض[4]، وهنا تكمن أهميتها القصوى في الحفاظ على الحياة فوق سطح الأرض.

لذلك كانت العناية بها مقصداً شرعياً هاماً، وحمايتها مطلب ضروري، والاعتداء عليها بالإفساد والقلع والحرق جرم يستوجب العقاب، وقد تضمنت السنة النبوية الشريفة أحاديث كثيرة تدعو إلى الاهتمام الزائد بالثروة النباتية، وتحث على رعايتها والقيام عليها والمسارعة في تنميتها بالتشجير والغرس الدائم، واستصلاح الأراضي البور والأراضي الصحراوية، وغيرها من الوسائل المؤدية إلى انتشار الاخضرار في الأرض.

وإذا كان الغرس والتشجير قديما إنما يُطْلَبُ للحصول على الزروع والثمار والظلال، فقد أثبتت الدراسات الحديثة أن الفوائد العظيمة التي يجنيها الإنسان من الغطاء النباتي لا تتوقف عند هذا الحد بل تتعداه إلى ميزات

---

[1] أخرجه مسلمفي صحيحه: كتاب الصيد والذبائح وما يؤكل من الحيوان، باب الأمر بإحسان الذبح والقتل وتحديد الشفرة، رقم الحديث: ٣٦١٥.

[2] أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب الأشربة، باب جواز استتباعه غيره إلى دار من يثق برضاه عن ذلك، رقم الحديث: ٣٧٩٩.

[3] أخرجه أبو داوود في سننه، كتاب الجهاد، باب ما يؤمر به للقيام على البهائم والدواب، رقم الحديث: ٢١٨٥، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، ج١ ص ٣١.

[4] مجلة عالم المعرفة: "التلوث مشكلة العصر"، أحمد مدحت سلام، ص١١.

حيوية أخرى، كتثبيت نسبة الأكسجين وثاني أكسيد الكربون في الغلاف الجوي وإمداد الكائنات الحية بالأكسجين النقي عند عملية التبادل الضوئي، ووقوفه في وجه التصحر الذي يهدد البشرية بالمجاعات، ومنعه لانجراف التربة وغيرها من الفوائد الجمة التي لا تكاد تُحصى.

ولعلنا لا نجد حديثاً يعلي من شأن الثروة النباتية ويدعو إلى تنميتها باستمرار أكثر من هذا الحديث الشريف الذي يفتح للمسلم أبواباً واسعة للثواب الجزيل الذي لا ينقطع، ويَعِدُه بالجزاء الأوفى إن هو أَكَبَّ على قطعة الأرض التي يملكها فأصلحها، ورواها، وغرسها، فأينعت وأثمرت وأهدته خيراتها وأصبحت مصدراً لا ينضب للحسنات المضاعفة، كلما مرت بهيمة فقضمت من عشبها، أو ورد عليها جائع أو ضال أو ابن سبيل فقطف من ثمرها، أو حَطَّ عليها طير فملأ حوصلته مما فيها، فيظل صاحبها يأكل منها ويصيب ما شاء له الله من مال جراء بيع غلاتها، وتظل الحسنات تتراكم في رصيده الأخروي دون أن يبذل جهداً في تحصيلها، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَغْرِسُ غَرْساً، أَوْ يَزْرَعُ زَرْعاً، فَيَأْكُلُ مِنْهُ طَيْرٌ أَوْ إِنْسَانٌ، أَوْ بَهِيمَةٌ، إِلاَّ كَانَ لَهُ بِهِ صَدَقَةٌ)**[1].

ففي هذا الحديث ترغيب قوي في الإقبال على الزرع و الغرس لما يترتب عليهما من فوائد عاجلة وآجلة، تغطي دنيا الإنسان وآخرته، وتمتد لتعود بالنفع على الطيور و البهائم، يقول الإمام النووي: "في هذه الأحاديث فضيلة الغرس، وفضيلة الزرع، وأن أجر فاعلي ذلك مستمر مادام الغراس والزرع، وما تولد منه إلى يوم القيامة"[2].

ونهى المسلمين عن أن يعطلوا الأراضي المنتجة ويهملوا زراعتها، وحثهم حثاً قوياً على إعمارها على الدوام، فإذا كانت زراعة الأرض فوق طاقة صاحب الأرض فإن مصلحة الأمة والمجتمع تقتضي أن يسلمها لأحد إخوانه من المسلمين ليقوم مقامه في زراعتها و تنمية مواردها حتى لا تبقى ثروات الأمة معطلة وطاقات أبنائها مهدورة، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **(مَنْ كَانَتْ لَهُ أَرْضٌ فَلْيَزْرَعْهَا فَإِنْ لَمْ يَزْرَعْهَا فَلْيُزْرِعْهَا أَخَاهُ)**[3]، وعَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْه أيضاً قَالَ: **(كَانَتْ لِرِجَالٍ مِنَّا فُضُولُ أَرَضِينَ فَقَالُوا نُؤَاجِرُهَا بِالثُّلُثِ وَالرُّبُعِ وَالنِّصْفِ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنْ كَانَتْ لَهُ أَرْضٌ فَلْيَزْرَعْهَا أَوْ لِيَمْنَحْهَا أَخَاهُ فَإِنْ أَبَى فَلْيُمْسِكْ أَرْضَهُ)**[4].

و أخبر أصحابه أن هناك شجرة تشبه الإنسان المؤمن في صلاحه وتقاه واتصاله بربه وانتفاع الناس به، وسألهم أن يجدوا اسمها من خلال المطابقة بين الطرفين، فلما أخفقوا في ذلك حل لهم اللغز وأخبرهم أنها النخلة، فهذه الشجرة المباركة لها فضل على سائر الأشجار بما حباها الله به من خصائص وميزات كفضل المؤمن على سائر الناس، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: **(إِنَّ مِنْ الشَّجَرِ شَجَرَةً لَا يَسْقُطُ وَرَقُهَا**

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الحرث و المزارعة، باب: فضل الزرع والغرس إذا أُكِلَ منه، رقم الحديث: ٢٣٢٠.

[2] صحيح مسلم بشرح النووي: مج ٥ ج١٠ ص٢١٣.

[3] أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب البيوع، باب كراء الأرض، رقم الحديث: ٢٨٦٢.

[4] أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الهبة وفضلها والتحريض عليها، باب فضل المنيحة، رقم الحديث: ٢٤٣٩.

وَهِيَ مَثَلُ الْمُسْلِمِ حَدِّثُونِي مَا هِيَ ؟ فَوَقَعَ النَّاسُ فِي شَجَرِ الْبَادِيَةِ وَوَقَعَ فِي نَفْسِي أَنَّهَا النَّخْلَة، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: فَاسْتَحْيَيْتُ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَخْبِرْنَا بِهَا . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :هِيَ النَّخْلَةُ)[1].

ولم يقتصر اهتمام السنة النبوية على الأراضي الخصبة التي تحتاج إلى تقليب التربة و الري فحسب، بل تعدتها إلى الأراضي البور و الأراضي الصحراوية، حيث تضمنت كثير من الأحاديث دعوة قوية للمسلمين للإقبال على الأرض الموات باستصلاحها وتنقيتها واستفراغ الجهد فيها لتتحول إلى أرض خصبة تنتج الغذاء والكلأ والظل والخضرة، وقرر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن المسلم إذا استقطع أرضاً بوراً فأصلحها تحولت بشكل تلقائي إلى ملكيته الخاصة لقاء ما بذل فيها من جهد ومال ليحولها من حالة الموات إلى حالة النماء والخضرة، عَنْ سَعِيدِ بْنِ زَيْدٍ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: **(مَنْ أَحْيَى أَرْضًا مَيِّتَةً فَهِيَ لَهُ وَلَيْسَ لِعِرْقٍ ظَالِمٍ حَقٌّ)**[2]، وعَنْ عُرْوَةَ قَالَ: **(أَشْهَدُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَضَى أَنَّ الْأَرْضَ أَرْضُ اللَّهِ وَالْعِبَادَ عِبَادُ اللَّهِ وَمَنْ أَحْيَا مَوَاتًا فَهُوَ أَحَقُّ بِهِ)**[3]، ومن أمات في المقابل أرضاً حية، كان من حق القائم بالأمر أن ينتزعها منه لأنه اعتدى على حق الأمة في أن تستفيد من ثرواتها، يروي أبو عبيد وغيره عن بلال بن الحارث المزني: "أن رسول الله صلى الله عليه و سلم أقطعه العقيق، فلما كان زمان عمر قال لبلال: إن رسول الله صلى الله عليه و سلم لم يقطعك لتحتجزه عن الناس، و إنما أقطعك لتعمل، فخذ منها ما قدرت على عمارته ورُدَّ الباقي"[4]، يقول الإمام القرطبي: "والزارعة من فروض الكفاية، فيجب على الإمام أن يجبر الناس عليها، وما كان في معناها من غرس الأشجار"[5].

إن مجموع هذه الأحاديث الشريفة وغيرها مما ورد في هذا الباب يدل على أهمية الثروة النباتية ومكانتها المتميزة في البيئة، لذلك كان الاعتداء عليها بالإتلاف أو الحرق أو غيرهما من وجوه الإفساد جريمة تطال تأثيراتها السلبية جميع الكائنات الحية التي تستفيد منها، وتستتبع بشكل طبيعي عقاباً ربانياً عادلاً يتناسب مع مستوى الجرم، والحديث النبوي الشريف الذي يتوعد المعتدين على الغطاء النباتي في الأرض بالمصير المشؤوم في النار، لا يستثني من هذه النباتات شيئاً، فإذا كان الناس يستعظمون الاعتداء على الأشجار المثمرة لفائدتها المعروفة، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم يحذر من أن يطال الفساد كل نبتة خرجت من الأرض حتى لو كانت سدرة في فلاة، لأن الأرض بحاجة لكل شبر أخضر حتى لو اقتصر وجوده على أن يتخذه المارة وعابري السبيل والبهائم مكاناً يأوون إلى ظله هرباً من القيظ والحر، قال عليه الصلاة والسلام: **(مَنْ قَطَعَ سِدْرَةً صَوَّبَ اللَّهُ رَأْسَهُ فِي النَّارِ**

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب العلم، باب الحياء في العلم، رقم الحديث: ١٢٨.

[2] أخرجه الترمذي في سننه: كتاب الأحكام عن رسول الله، باب ما ذكر في إحياء أرض الموات، رقم الحديث: ١٢٩٩، قال الترمذي: حديث حسن غريب، وصححه الألباني في إرواء الغليل، رقم: ١٥٥٠.

[3] أخرجه أبو داوود في سننه: كتاب الخراج والإمارة والفيء، باب في إحياء الموات، رقم الحديث: ٢٦٧٢، ٢٧٦٦، صحيح الجامع.

[4] الأموال: أبو عبيد القاسم بن سلام الهروي، دار الكتب العلمية، بيروت، تحقيق: محمد خليل هراس، ص٢٩٠.

[5] الجامع لأحكام القرآن: القرطبي، ج٣ ص٣٠٦.

سُئِلَ أَبُو دَاوُد عَنْ مَعْنَى هَذَا الْحَدِيثِ فَقَالَ هَذَا الْحَدِيثُ مُخْتَصَرٌ يَعْنِي مَنْ قَطَعَ سِدْرَةً فِي فَلَاةٍ يَسْتَظِلُّ بِهَا ابْنُ السَّبِيلِ وَالْبَهَائِمُ عَبَثًا وَظُلْمًا بِغَيْرِ حَقٍّ يَكُونُ لَهُ فِيهَا صَوَّبَ اللَّهُ رَأْسَهُ فِي النَّارِ)[1].

واستنهض همم المسلمين لأن تظل موجهة إلى هذا المجال الفسيح يطلبون فيه الأجر والثواب، ويعدونه باباً واسعاً من أبواب الصالحات لا يهجرونه حتى في أحلك الظروف وأصعب المواقف، وعبر عن ذلك تعبيراً بليغاً جداً حينما حث على مزاولة الزرع والغرس في كل مكان وزمان حتى لو أيقن الإنسان أن الساعة ستقوم بعد قليل، وتتبدل الأرض غير الأرض والسموات، ويكون قد أمسك فسيلة ليغرسها، فلا يحول هذا الحدث العظيم بينه وبين أن يضعها في الأرض، تأكيداً منه عليه الصلاة والسلام على أن العناية بالثروة النباتية لا تتوقف حتى يتوقف وجود الإنسان: **(إِنْ قَامَتْ السَّاعَةُ وَبِيَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ فَإِنْ اسْتَطَاعَ أَنْ لَا يَقُومَ حَتَّى يَغْرِسَهَا فَلْيَفْعَلْ)**[2]، يقول المناوي: "والحاصل أنه مبالغة في الحث على غرس الأشجار، وحفر الأنهار، لتبقى هذه الدار عامرة إلى آخر أمدها المحدود المعدود المعلوم، فكما غرس لك غيرك فانتفعت به، فاغرس لمن يجيء بعدك لينتفع، وإن لم يبق من الدنيا إلا صبابة"[3].

سادساً: المحافظة على الصحة والعمران في السنة النبوية

تضمنت السنة النبوية الشريفة إلى جانب ما سبق توجيهات وإرشادات كثيرة تندرج كلها في إطار المحافظة على نظافة البيئة، وحمايتها من التلوث بسن أحكام مختلفة توجب على المسلمين العناية بطهارة أجسامهم وأثوابهم، والاهتمام في الوقت نفسه بنظافة آنيتهم وبيوتهم وأفنيتهم ومساجدهم وشوارعهم، وبذلك يكون محيط الإنسان كله خاضع لتعليمات واضحة تفرض على المسلمين العناية بنظافته،ومنع التلوث عنه، وربط عليه الصلاة والسلام هذه الأحكام والتعليمات بالجانب العقدي ربطاً وثيقاً، وجعلها جزءاً صميماً من العبادات التي يتقرب بها الإنسان إلى ربه، ووعد الملتزمين بها، والحريصين على تجسيدها في حياتهم العملية بمزيد من الأجر والمغفرة والثواب.

فمن جملة هذه الأحكام الاهتمام بنظافة الجسم، حيث ندب الإسلام غسل الجسد في عموم الأحوال، وأوجبه في بعض الأحوال، مما يجعل هذا الغسل يتكرر في اليوم أو الأسبوع كلما استدعى الأمر ذلك، ومن الغسل الواجب: غسل الجنابة، والغسل بعد الحيض والنفاس، وغسل الميت، ومن الغسل المندوب والمستحب: غسل الجمعة والعيدين، وللإحرام بالحج والعمرة، وصلاة الاستسقاء، والكسوف، وعند الاعتكاف، وعند تغير رائحة البدن، وحضور مجامع الناس، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **(حَقٌّ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يَغْتَسِلَ فِي كُلِّ سَبْعَةِ أَيَّامٍ يَوْمًا يَغْسِلُ فِيهِ رَأْسَهُ وَجَسَدَهُ)**[4]، وأمر المسلمين بتعهد أجسامهم بالنظافة الدورية بإزالة الشعر

---

[1] أخرجه أبو داوود: كتاب الأدب، باب قطع السدر، رقم الحديث: ٤٥٦١، انفرد به أبو داوود، وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم: ٦٤٧٦.

[2] أخرجه أحمد في مسنده: كتاب باقي مسند المكثرين، باب باقي المسند السابق، رقم الحديث: ١٢٥١٢، وأخرجه البخاري في الأدب المفرد: ج١ ص١٦٨، قال شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم.

[3] فيض القدير شرح الجامع الصغير: عبد الرؤوف المناوي، مج ٣ ص٣٠.

[4] أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الجمعة، باب هل على من لم يشهد الجمعة غسل من النساء والصبيان، رقم الحديث: ٨٤٧.

والزوائد لأن بقاءها يمهد السبيل للجراثيم والميكروبات لتتكاثر وتتسبب في وقوع الأمراض كما تتسبب في إذاية الناس المحيطين بهم، فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **(عَشْرٌ مِنْ الْفِطْرَةِ: قَصُّ الشَّارِبِ وَإِعْفَاءُ اللِّحْيَةِ وَالسِّوَاكُ وَاسْتِنْشَاقُ الْمَاءِ وَقَصُّ الْأَظْفَارِ وَغَسْلُ الْبَرَاجِمِ وَنَتْفُ الْإِبِطِ وَحَلْقُ الْعَانَةِ وَانْتِقَاصُ الْمَاءِ قَالَ زَكَرِيَّاءُ قَالَ مُصْعَبٌ وَنَسِيتُ الْعَاشِرَةَ إِلَّا أَنْ تَكُونَ الْمَضْمَضَةَ)**[1]، وكلها توجيهات راقية جداً في العناية بأخص خصائص الجسم ليبقى المسلم مثالاً حياً للنظافة، وقدوة صالحة للإنسانية جمعاء.

وأرشد الهدي النبوي إلى المحافظة على نظافة الأطعمة والماء المعد للشرب والطهي والاغتسال بإحكام إغلاق الآنية التي تحفظ فيها المياه والحرص على تغطية الطعام حتى لا يتلوث بما يحويه المحيط من الملوثات كالغبار والدخان والأتربة والحشرات وهوام الأرض وغيرها، مما يؤدي إلى إصابة الإنسان بمختلف الأمراض الناجمة عن ذلك، عَنْ جَابِرٍ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: **(غَطُّوا الْإِنَاءَ وَأَوْكُوا السِّقَاءَ وَأَغْلِقُوا الْبَابَ وَأَطْفِئُوا السِّرَاجَ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَحُلُّ سِقَاءً وَلَا يَفْتَحُ بَابًا وَلَا يَكْشِفُ إِنَاءً فَإِنْ لَمْ يَجِدْ أَحَدُكُمْ إِلَّا أَنْ يَعْرُضَ عَلَى إِنَائِهِ عُودًا وَيَذْكُرَ اسْمَ اللَّهِ فَلْيَفْعَلْ فَإِنَّ الْفُوَيْسِقَةَ تُضْرِمُ عَلَى أَهْلِ الْبَيْتِ بَيْتَهُمْ)**[2].

وأمرهم بتنظيف بيوتهم وأفنيتهم من القاذورات ليبقى الجو فيها صحي ونظيف: **(عَنْ صَالِحِ بْنِ أَبِي حَسَّانَ قَالَ سَمِعْتُ سَعِيدَ بْنَ الْمُسَيَّبِ يَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ يُحِبُّ الطَّيِّبَ نَظِيفٌ يُحِبُّ النَّظَافَةَ كَرِيمٌ يُحِبُّ الْكَرَمَ جَوَادٌ يُحِبُّ الْجُودَ فَنَظِّفُوا أُرَاهُ قَالَ أَفْنِيَتَكُمْ وَلَا تَشَبَّهُوا بِالْيَهُودِ)**[3].

وحث على تطهير بيوت العبادة فنهى عن التبول والتمخط في المسجد، لما في ذلك من تلويث للمحيط، وإذاية لرواد المسجد وخطر على صحتهم، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **كَانَ يُعْجِبُهُ الْعَرَاجِينُ أَنْ يُمْسِكَهَا بِيَدِهِ فَدَخَلَ الْمَسْجِدَ ذَاتَ يَوْمٍ وَفِي يَدِهِ وَاحِدٌ مِنْهَا فَرَأَى نُخَامَاتٍ فِي قِبْلَةِ الْمَسْجِدِ فَحَتَّهُنَّ بِهِ حَتَّى أَنْقَاهُنَّ ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ مُغْضَبًا فَقَالَ: أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَسْتَقْبِلَهُ رَجُلٌ فَيَبْصُقَ فِي وَجْهِهِ إِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا قَامَ إِلَى الصَّلَاةِ فَإِنَّمَا يَسْتَقْبِلُ رَبَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَالْمَلَكُ عَنْ يَمِينِهِ فَلَا يَبْصُقْ بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَا عَنْ يَمِينِهِ وَلْيَبْصُقْ تَحْتَ قَدَمِهِ الْيُسْرَى أَوْ عَنْ يَسَارِهِ فَإِنْ عَجِلَتْ بِهِ بَادِرَةٌ فَلْيَقُلْ هَكَذَا وَرَدَّ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ وَتَفَلَ يَحْيَى فِي ثَوْبِهِ وَدَلَكَهُ)**[4]، وقدم بنفسه بياناً عملياً للحرص على النظافة، ليرشد المسلمين إلى أن كل إنسان عليه أن يسهم بصورة حية وملموسة في نظافة البيئة التي يحيا في وسطها.

وشملت التعاليم النبوية بالإضافة إلى البيوت والمساجد الشوارع والأحياء، حيث جعل النبي الكريم الإشراف على نظافة الطرقات وأماكن مرور الناس ومواضع راحتهم واستراحهم من أجل الأعمال وأوجبها للثواب وحسن

---

[1] أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الطهارة، باب خصال الفطرة، رقم الحديث: ٣٨٤.

[2] أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب الأشربة، باب الأمر بتغطية الإناء وإيكاء السقاء وإغلاق الأبواب، رقم الحديث: ٣٧٥٥.

[3] أخرجه الترمذي في سننه: كتاب الأدب عن رسول الله، باب ما جاء في النظافة، رقم الحديث: ٢٧٢٣، وقال: حديث غريب، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، ج١ ص٤١٨.

[4] أخرجه أحمد في مسنده: كتاب باقي مسند المكثرين، باب مسند أبي سعيد الخدري، رقم الحديث: ١٠٧٥٦.

الأجر، وهو ما عبر عنه بإماطة الأذى عن الطريق، حتى إنه جعلها شعبة من شعب الإيمان لما لها من أثر في تنظيف الشوارع والأحياء، ومنع التلوث وما يترتب عنه من انتشار الروائح الكريهة والأمراض المعدية، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **(الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنْ الطَّرِيقِ وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنْ الْإِيمَانِ)**[1].

وأخبر عليه الصلاة والسلام أن رجلاً غفر له الله خطاياه لأنه أخر غصن شوك من الطريق ومهدها للسائرين حتى لا يصابوا بالأذى، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: **(بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي بِطَرِيقٍ وَجَدَ غُصْنَ شَوْكٍ عَلَى الطَّرِيقِ فَأَخَّرَهُ فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ فَغَفَرَ لَهُ)**[2]، وفي هذا الحديث الرائع تربية عالية للمسلمين ليوجهوا عنايتهم إلى محيطهم الواسع، ولا يحصروا اهتماماتهم في أضيق الحدود فلا تتجاوز نطاق بيوتهم، ويعلمهم أن سلامة وجودهم مرتبط بنظافة بيئتهم، وضرب لهم مثلاً بالرجل الذي مرَّ بشوك في الطريق فحدثته نفسه أن هذا الشوك قد يؤذي المسلمين فأخره إشفاقا منه عليهم، لأنه تجاوز حدود نفسه لتشمل المجتمع بأكمله فكان جزاؤه مغفرة واسعة من ربه، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: **(مَرَّ رَجُلٌ مِنْ الْمُسْلِمِينَ بِجِذْلِ شَوْكٍ فِي الطَّرِيقِ فَقَالَ لَأُمِيطَنَّ هَذَا الشَّوْكَ عَنْ الطَّرِيقِ أَنْ لَا يَعْقِرَ رَجُلًا مُسْلِمًا قَالَ فَغُفِرَ لَهُ)**[3].

ويدخل في هذا الإطار أيضاً نهي النبي صلى الله عليه وسلم المصاب بالطاعون من الانتقال من مكان إلى آخر، لحصر العدوى، والتقليل ما أمكن من عدد الإصابات، ونصحه بلزوم البلد الذي نزل به المرض، كما نهى في الوقت ذاته القادم إليه من دخوله حفاظا على صحته، وحذراً من أن يعود إلى أهله وهو يحمل بذور المرض فيخلق بؤر إصابة تهدد الصحة العامة، عَنْ عَامِرِ بْنِ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ عَنْ أَبِيهِ أَنَّهُ سَمِعَهُ يَسْأَلُ أُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ مَاذَا سَمِعْتَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الطَّاعُونِ؟ فَقَالَ أُسَامَةُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **(الطَّاعُونُ رِجْسٌ أُرْسِلَ عَلَى طَائِفَةٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَوْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ فَإِذَا سَمِعْتُمْ بِهِ بِأَرْضٍ فَلَا تَقْدَمُوا عَلَيْهِ وَإِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا فَلَا تَخْرُجُوا فِرَارًا مِنْهُ)**[4]، ووعد الصابرين الذين لا يبرحون إقامتهم ويحتسبون آلامهم لله تعالى بأجر الشهيد، عَنْ يَحْيَى بْنِ يَعْمَرَ عَنْ عَائِشَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهَا أَخْبَرَتْنَا أَنَّهَا سَأَلَتْ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ الطَّاعُونِ فَأَخْبَرَهَا نَبِيُّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **(أَنَّهُ كَانَ عَذَابًا يَبْعَثُهُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ فَجَعَلَهُ اللَّهُ رَحْمَةً لِلْمُؤْمِنِينَ فَلَيْسَ مِنْ عَبْدٍ يَقَعُ الطَّاعُونُ فَيَمْكُثُ فِي بَلَدِهِ صَابِرًا يَعْلَمُ أَنَّهُ لَنْ يُصِيبَهُ إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَهُ إِلَّا كَانَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِ الشَّهِيدِ)**[5].

---

[1] أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب الإيمان، باب بيان عدد شعب الإيمان، رقم الحديث: ٥١، حديث حسن صحيح.

[2] أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الأذان، باب فضل التهجير إلى الظهر، رقم الحديث: ٦١٥.

[3] أخرجه أحمد في مسنده: كتاب باقي مسند المكثرين، رقم الحديث: ٨١٤٢، وأخرجه البخاري في الأدب المفرد، وصححه الألباني في صحيح الجامع.

[4] صحيح البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الغار، رقم الحديث: ٣٢١٤.

[5] أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الغار، رقم: ٣٢١٥.

قال القرطبي في تفسيره: "وإذا كان الوباء بأرض فلا يقدم عليه أحد أخذا بالحزم والحذر والتحرز من مواضع الضرر، ودفعا للأوهام المشوشة لنفس الإنسان، وفي الدخول عليه الهلاك وذلك لا يجوز في حكم الله تعالى، فإن صيانة النفس عن المكروه واجبة"[1]، وهذا الإجراء الوقائي الذي سنه الرسول صلى الله عليه وسلم صار معمولاً به عند الدول الحديثة بما يعرف بالحجر الصحي الذي تلزم من خلاله الوافدين إليها أن يستظهروا الشهادات التي تثبت خلو أجسامهم من أية أمراض معدية.

سابعاً: ترشيد الاستهلاك والنهي عن الإسراف والتبذير في السنة النبوية

إن ترشيد الاستهلاك والنهي عن الإسراف والتبذير قاعدة إسلامية عظيمة تقع في قلب الحلول الجذرية التي تعالج مشكلة التلوث، ذلك أن الإسراف والتبذير مسؤول مسؤولية مباشرة عن قسم كبير من أسباب أزمة التلوث البيئي التي تجتاح العالم؛ فالإنسان المعاصر الذي أقام حضارته على أسس مادية بحتة حصر اهتماماته في إشباع شهواته، وإرضاء نزواته، وأطلق العنان لغرائزه فأفرط إفراطاً كبيراً في استهلاك الضروريات والكماليات على السواء، وتجاوز حدود الحاجة إلى الإسراف، مما كان له أثره البارز على تلوث البيئة، بما يترتب عن الاستهلاك الزائد عن الحاجة من إرهاق لمواردها، وإثقال لكاهلها بالفضلات التي تطرحها المشاريع الصناعية والمنازل.

إن مبدأ تحقيق الرفاهية القصوى للفرد الذي ارتكزت عليه الحضارة المعاصرة، لم يُعرْ اهتماماً لما يمكن أن يصيب موارد البيئة من استنزاف، أو ما يتخلف عنها من ملوثات، فتوسعت في الصناعات الاستهلاكية التي استنفذت مقادير هائلة من المعادن، ومثلها من الطاقة وكميات كبيرة من المياه العذبة التي تدخل المصانع صافية وتخرج منها ملوثة بالسموم الكيمياوية[2]، إضافة إلى الغطاء النباتي الذي يتعرض للاعتداء المستمر، والثروة الحيوانية التي يتهدد الانقراض أنواعاً كثيرة منها، وتبدو مظاهر هذا الإسراف والتبذير الفظيع الذي يطبع سلوك الإنسان المعاصر واضحة فيما تلقيه المنازل يومياً من فضلات الطعام الصالح للأكل بعد أن يعزف أصحابه عنه، ويقدر بعض الدارسين أن كميات المواد الغذائية الملقاة في قمامات الدول الصناعية تكفي لغذاء شعوب كثيرة تعاني المجاعة والجفاف.

كما تبدو مظاهر الإسراف أيضاً في حالة الخواء الروحي التي جعلت الإنسان المعاصر يبحث دائما عن الجديد، ويميل بشكل مستمر إلى التغيير في نمط الحياة، والذي يعبر عنه بمتابعته الشغوفة لأحداث الموضة، وتفنن أصحاب السلع الاستهلاكية في صياغة إعلاناتهم، واستفزاز رغبات الفرد وشهواته مما يدفعه دفعا إلى الاستغناء عن ممتلكاته القديمة واقتناء أخرى جديدة لإرواء ذلك الإحساس بالضياع الذي ينتابه، فإذا البيوت تطرح باستمرار أدوات منزلية، وآلات ترفيهية، وأثاثاً لا يزال صالحاً للاستعمال لمدة طويلة، وثياباً وأحذية لم تلبس سوى مرة أو مرتين، ليتم استبدال كل ذلك بما يغايره في الشكل أو اللون[3]، أو طريقة الاستخدام، لإرضاء شراهة الإنسان إلى الاستهلاك الواسع والمستمر.

---

[1] الجامع لأحكام القرآن: محمد بن أحمد القرطبي، ج٣ ص٢٣٤.

[2] مجلة منار الإسلام: "التلوث ضريبة الحضارة" محمد بشار الرفاعي، ص٦٠.

[3] الأرض في الميزان: آل قور ص١٦٥.

ويدخل في هذا الإطار أيضاً ما تتعرض له الثروة الحيوانية في الغابات من إبادة على يد القناصين الذين يتخذون من الحيوانات البرية هدفاً في رحلات الصيد الترفيهية، أو أولئك الذين لا يتورعون عن قتل مئات الحيوانات وترك جثثها في العراء في سبيل الحصول على فروها، أو أنيابها العاجية[1]، أو جلودها الثمينة، لصنع الحلي أو ثياب السهرات الفارهة وحقائب اليد الجميلة.

من أجل ذلك كله حارب الإسلام الإسراف والتبذير، وعده من الظلم والعدوان، وقد أثبتت لنا الأيام صدق الوحي، وأعطتنا الدلائل الواضحة على عظمة التعاليم الإسلامية، وأكدت لنا أن البعد عن هدي الله يفضي لا محالة إلى المعيشة الضنك، وليس هناك عيشة أكثر ضنكاً من حياة الإنسان المعاصر الذي تتهدده أزمة التلوث وتتربص به من كل جانب.

لقد أرشد القرآن الإنسان إلى أقوم السبل التي تريحه وتستقيم على أساسها حياته، فدعا إلى الاعتدال في الإنفاق، ونهى أشد النهي عن السرف والتبذير الذي يعرفه اللغويون بأنه مجاوزة الحد في كل فعل يأتيه الإنسان[2]، وبذلك تتضح لنا العلاقة بين الإسراف والتلوث: "فإذا كان الإسراف يعني مجاوزة الحد، ووضع الشيء في غير موضعه، فإن هذا هو المعنى الذي ينص عليه تعريف التلوث، فكأن الإسراف في معناه اللغوي هو التلوث بمفهومنا الحالي، سواء أكان التلوث ناجما عن وجود شيء مادي أو طاقة في غير الموضع الطبيعي، أو وجود أي منهما في مكانه الطبيعي بكميات تتجاوز الحد، الأمر الذي يؤدي إلى الإخلال بالتوازن البيئي"[3].

وقد تضافرت أحاديث كثيرة تدعو الإنسان إلى الاعتدال في كل شيء حتى يحافظ على موارد البيئة ويجنبها ويلات الاستنزاف، ومن أَجَلِّ هذه الأحاديث تلك التي تدعو إلى المحافظة على المياه، فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: (**أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَرَّ بِسَعْدٍ وَهُوَ يَتَوَضَّأُ فَقَالَ: مَا هَذَا السَّرَفُ؟ فَقَالَ: أَفِي الْوُضُوءِ إِسْرَافٌ؟ قَالَ: نَعَمْ، وَإِنْ كُنْتَ عَلَى نَهَرٍ جَارٍ**)[4]، وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: (**كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَتَوَضَّأُ بِالْمُدِّ وَيَغْتَسِلُ بِالصَّاعِ إِلَى خَمْسَةِ أَمْدَادٍ**)[5].

ومعنى هذا أن كل استهلاك للماء يتجاوز القدر المطلوب المؤدي للغرض، ويتسبب في إهدار كميات منه بدون سبب يعد في الإسلام إساءة وظلماً، وقد استند الفقهاء إلى هذا الحديث ليقرروا أن الزيادة في غسل الأعضاء للوضوء على الثلاث الواردة في الحديث مكروهة إذا كان الماء مباحاً أو مملوكاً لصاحبه، أما إذا كان موقوفاً مثل ماء المساجد والمدارس فإن الزيادة فيه على الثلاث حرام عند جمهور الفقهاء[6]، لأن الغرض منه هو الوضوء الشرعي فقط، فإذا كان التشديد في استهلاك الماء في حالة العبادة والتطهير هذا شأنه، فمن باب أولى أن يلتزم الإنسان الحد

---

[1] بيئة من أجل البقاء: محمد سعيد الحفار، ص١٥٥.

[2] معجم مفردات ألفاظ القرآن: الراغب الأصفهاني، ص٢٣٦.

[3] الإسراف تأثيره على البيئة واستنزاف مواردها: محمد عبد القادر الفقي، ص٥٣.

[4] أخرجه ابن ماجه في سننه: كتاب الطهارة وسننها، باب ما جاء في القصد في الوضوء وكراهة التعدي فيه، رقم: ٤١٩، وضعفه الألباني في تخريجه لأحاديث منار السبيل.

[5] أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب الحيض، باب القدر المستحب من الماء في غسل الجنابة، رقم٤٩٠.

[6] عون المعبود: محمد شمس الحق آبادي، ج١ ص١١٨، راجع أيضاً: الفقه الإسلامي وأدلته: الزحيلي، ج١ ص٢٦١.

المعتدل في الحالات الأخرى كالطهي والتنظيف والاستحمام وغيرها، وأن يقف طويلاً قبل أن يفكر في إهدار هذه النعمة العظيمة في الكماليات ومظاهر الترف، أو يلوثها ببقايا السموم الصناعية في إنتاج ما لا حاجة للناس به من صناعات لا تجني منها البشرية فائدة محققة، ولا تعدو أن تكون للزينة والتعليب الفاره مثلاً، ثم تكون عاقبتها استنزاف جائر لموارد الماء من جهة، وإثقال لكاهل البيئة بفضلات إضافية من جهة أخرى.

كما تواترت الأحاديث الشريفة أيضاً تنهى الإنسان عن أن يكون عبداً لبطنه، فينساق وراء شهواته في التهام ألوان الطعام والشراب، ويتفنن في إعداد أصنافها وحشو معدته بها، ودعت إلى الاعتدال في كل ذلك لحماية البدن من الأمراض والأسقام الناتجة عن التخمة، وفي الوقت ذاته عدم تحميل البيئة أكثر مما تحتمل من استنزاف الموارد، وتراكم الفضلات.

وإذا كان هذا الأمر لا تبدو آثاره على مستوى الفرد أو الأفراد، فإنه إذا أصبح عادة لشعب أو شعوب بأكملها ظهرت هذه الآثار واضحة، فتبديد الأغذية المنتزعة من موارد البيئة يبدو: "مجسماً متمثلاً في أعداد كبيرة من أجسام غريبة لبني الإنسان تتحرك في مدن العالم المترف وقد شوهتها السمنة أيما تشويه، في حين تغالب أكثر الأجسام الأخرى في تلك المدن مغالبة شديدة بأنواع مختلفة من الأساليب، ومقادير عالية من الأموال داء السمنة الذي أصبح هاجساً مخيفاً في ذلك العالم"[1].

وحدد الرسول صلى الله عليه وسلم القدر الذي يكفي الإنسان ويلبي حاجته الطبيعية من الطعام والشراب، فعن مِقْدَامِ بْنِ مَعْدِي كَرِبَ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: **(مَا مَلَأَ آدَمِيٌّ وِعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنٍ بِحَسْبِ ابْنِ آدَمَ أُكُلَاتٌ يُقِمْنَ صُلْبَهُ فَإِنْ كَانَ لَا مَحَالَةَ فَثُلُثٌ لِطَعَامِهِ وَثُلُثٌ لِشَرَابِهِ وَثُلُثٌ لِنَفَسِهِ)**[2]، وبناء عليه، عدَّ الفقهاء تناول الطعام والشراب بالقدر الذي يدفع الهلاك عن النفس فرض، والأكل بقدر الشبع مباح، وما زاد على الشبع فهو مكروه أو محظور، وقال الحنابلة إن الأكل الذي يفضي إلى التخمة إسراف، وعدوا ذلك من العدوان المحرم، لأن التخمة سبب في مرض الجسم وفساد البدن[3].

وبالتزام هذه التعاليم النبوية وتعميمها، وتنشئة الأفراد عليها، يكون الإنسان قد حقق هدفين معاً، أولهما: المحافظة على صحته وعافيته وسلامة بدنه من الأسقام والعلل التي يجرها الإسراف في الأكل وهي كثيرة وخطيرة، وثانيهما: الحد من تبديد موارد البيئة وإتاحة الفرصة لها لتجديد نفسها، واستعادة توازنها، لتبقى منبعا للنعم على الدوام، وإذا كان هذا الهدف الأخير لم تظهر آثاره قديماً لعدم وجود المبررات التي تستدعيه، فإن المشكلة البيئية في عصرنا الحاضر قد أوضحت البعد الذي تكتسيه هذه الأحكام الشرعية في معالجة أزمة التلوث، من ذلك أن الدراسات أظهرت أن كمية الطعام الذي ينتج في العالم يكفي لإطعام ثمانية بلايين من الأفراد، بينما سكان الأرض

---

[1] قضايا البيئة من منظور إسلامي: د. عبد المجيد النجار، ص٥٣.

[2] أخرجه الترمذي في سننه: كتاب الزهد، باب ما جاء في كراهية كثرة الأكل، رقم الحديث: ٢٣٠٢، وقال: حديث حسن صحيح، ورواه ابن حبان في صحيحه، كتاب الرقائق، باب الفقر والزهد والقناعة، رقم: ٦٨٠، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، رقم: ٢٢٦٥.

[3] مجلة منار الإسلام: الإسراف وتأثيره على البيئة واستنزاف مواردها، محمد عبد القادر الفقي، ص٦١.

يبلغ عددهم ٥,٣ بليون نسمة[١]، مما يعكس بوضوح أن هناك شعوباً تأكل حتى التخمة وترمي ما تبقى لديها في المزابل، بينما لا تجد شعوب أخرى لقمة لدفع خطر الموت عنها، وإلا ما معنى أن يموت ملايين البشر جوعاً بينما المواد الغذائية تكفيهم وتزيد عن حاجتهم؟

إن ترشيد الاستهلاك والاقتصاد فيه قاعدة هامة أصلها القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة وحرصاً على أن تكون صفة أساسية من صفات المسلم، وخلقا مركوزا فيه، يرافقه في مجالات حياته جميعها، ويكيف سلوكه، ويرشده إلى أقوم السبل للتعامل مع مختلف موارد البيئة لصيانتها من العبث، والمحافظة عليها من السرف، وحمايتها من التبديد، وهي الأمور الضرورية التي تفتقر إليها البيئة ويفتقدها الإنسان المعاصر، وتتطلب من المسلمين التحرك الواعي في هذا المجال لإيجاد القنوات المؤثرة التي بإمكانها توصيل هذا الفكر الخصب والطرح الواعي إلى العالم.

خاتمة:

وفي ختام هذا العرض السريع لقضايا البيئة في السنة النبوية الشريفة، نخلص إلى مجموعة من النتائج التي توصلنا إليها من خلال استعراض نصوص الأحاديث الشريفة التي تتناول موضوع البيئة من جوانبها المختلفة، والتي يمكن إجمالها فيما يأتي:

١ ـ إن تعريف البيئة الذي نستخلصه من السنة النبوية الشريفة يختلف عن التعريف الذي تبنته المنظمات العالمية، لأنه يتجاوز الحدود المادية للبيئة ويدرج معها الأبعاد الروحية والفكرية ويعدها الأساس الأول للتعامل مع البيئة لأنها هي القاعدة الأساسية التي يبني عليها الإنسان طبيعة العلاقة التي تربطه بمحيطه.

٢ ـ إن السنة النبوية الشريفة قد نبهت المسلمين إلى المكانة المتميزة التي تحتلها البيئة وأكدت سريان روح الحياة فيها ليتعامل معها الناس برفق، و يسخروها برحمة، و يشفقوا على مواردها من الأذى والتلوث.

٣ ـ إن الرسول صلى الله عليه وسلم قد نبه المسلمين مراراً و تكراراً عن طريق التعليم الشفوي والممارسة العملية إلى أهمية الماء وحيويته، وسن قواعد صارمة للمحافظة عليه من الهدر والإسراف.

٤ ـ إن الرسول صلى الله عليه وسلم دعا المسلمين إلى احترام وجود جميع الكائنات الحيوانية التي خلقها الله لأنها أمم تسبح الله، خلقها ربها لتؤدي وظيفتها في الحياة، فلا يجوز للإنسان أن يعتدي على هذا الوجود بالقتل العابث أو الإبادة، أو التعذيب أو الترويع أو الصيد الجائر أو غيرها من الأساليب التي تهدد نوعا من هذه الأنواع بالانقراض، وهذه قاعدة عظيمة تبنتها المنظمات والجمعيات البيئية العالمية في عصرنا الحالي، وهيأت لها الحظائر الطبيعية، وسنت لها قوانين تحريم الصيد وما إليها من الإجراءات التي تسعى إلى الحفاظ على السلالات الحيوانية جميعها لما لها من أثر في الحفاظ على التوازن البيئي الذي ما فتئ يتدهور.

٥ ـ إن الرسول صلى الله عليه وسلم قد شجع إلى أبعد الحدود زراعة الأرض وغرس الأشجار، ووعد المزارعين بعظيم الأجر وجزيل الثواب إن هم اجتهدوا في تنمية الأرض وإحيائها واستخراج خيراتها بما يضمن للبشرية غطاءً نباتياً دائماً يمدها بالغذاء والدواء والهواء النظيف ويحميها من التصحر والجفاف، وتوعد

[١] مجلة منبر الحوار.: قسم التوثيق، قمة الأرض: ارتباط البيئة بالاقتصاد، ص٩٦.

الذين يعتدون على النباتات بالقطع والحرق والإتلاف مهما صغر شأنها وقل نفعها بسوء المصير والعذاب الأليم، معتبرا أن الاعتداء على الاخضرار في الأرض اعتداء على الحياة.

٦ . إن الأحاديث النبوية الشريفة قد تضافرت على حث المسلم على نظافة المحيط ابتداء من جسمه مروراً بطعامه وشرابه وثيابه وبيته وفنائه وانتهاء بالأحياء والشوارع لحماية البيئة من الملوثات التي تهدد الإنسان والحيوان والنبات، وتشكل بؤراً للأمراض و الأوبئة، كما أوصى بحصر الإصابات الوبائية في نطاق ضيق عندما نهى المصاب بالطاعون بالخروج من موطنه وحذر القادمين من الورود عليه لما في ذلك من تهديد للصحة العامة.

٧ . إن السنة النبوية الشريفة قد نهت نهياً شديداً عن الإسراف والتبذير والتوسع في الاستهلاك في المجالات جميعها حفاظاً على صحة الإنسان من جهة وعلى موارد البيئة من الاستنزاف الجائر من جهة أخرى، و قد تبين لنا من خلال الدراسات البيئية الحديثة أن من أعظم أسباب التلوث ميل الإنسان المعاصر إلى استغلال طاقات البيئة واستخراج خيراتها بكميات تفوق حاجته الطبيعية، فكانت النتيجة الحتمية أنه أصبح يطرح فضلات لا تقوى البيئة على استيعابها.

٨ . إن هذه الدراسات قد نبهت المسلمين إلى ما تضمنه الوحي المعصوم (كتاباً وسنة) من أوامر ونواه وتوجيهات وإرشادات تحث في صراحة ووضوح على الاهتمام بالبيئة والمحافظة على مواردها والانتفاع بها في حدود الحاجة وتجنيبها مخاطر الاستنزاف بالتمادي في الاستهلاك والتوسع فيه.

٩ . إن التوجيهات والإرشادات النبوية جميعها التي ضمتها الأحاديث الشريفة والسيرة المطهرة تصلح لأن تكون أرضية صالحة لبناء منظومة فقهية بيئية إسلامية لمواجهة أخطار التلوث من خلال التركيز على إعداد الإنسان الصالح الذي يراعي حقوق الكائنات في الوجود و يتعامل معها معاملة الشريك.